من رسالة الفكر الاجتماعية

بقلم عبد الله عبد الدائم

تعرف بلادنا العربية اليوم موجة من العناية بالمباديء والعقائد المتصلة بكيان الامة . وما من عهد اشرأبت فيه النفوس عندنا الى الحديث عن النظم الاجتماعية الصالحة والطالحة ، والمباديء السياسية السويّة والمنحرفة ، كهذا العهد الذي نشهده اليوم . ذلك ان الاحداث العالمية من جهة ، والاحداث الداخلية التي مرت بالبلاد العربية من جهة ثانية ، جعلت من مثل هـذه المشكلات الاجتماعية شيئاً واقعياً حياً ، وجعلت البحث فيها يسير جنباً الى جنب مع يقظة الحياة القومية وانبعاثها .

ومثل هـذا التوفّز الى العناية بمباديء حياة الجماعات والامم جديرٌ بأن يجعل المفكرين واعين لمسئوليتهم ، مدركين لما يمليه عليهم واجبهم القومي والفكري من توجيه لهذا التوفز وصون له . ولئن كانت ثمة سمة تسم المفكرين فهي انهم لا ينطلقون مفتونين كما ينطلق عامة النـاس ، وانهم لا يندفعون وراء موجات طاغية دون ان يتدبروا امرها ويميزوا زائفها من صحيحها . فقوام وجودهم انهم يعرفون من دون غيرهم ، ان يواجهوا الغليان بفكر مطمئن ، وأن يراقبوا الفورات بعقل رابط الجأش ، وان يطلّوا من خلال العـابر على ما هو باقٍ ثابت ، ومن خلال الحاضر على ما هو مقبل . وسرُّ جوهرهم انهم قادرون على ان ينتشلوا انفسهم من الغمرات ، ليخلوا الى مناجاة عقولهم وسؤالها .. فما عساهم واجدون اليوم ؟

ان افكاراً ومباديء قلقة غير مطمئنة تشيع في جو البلاد العربية ، فتحدثها عن الديمقراطية والاشتراكية والديكتاتورية والانسانية والقومية والحرية وغيرها .. والمتأمل لهذه الافكار والمباديء يدرك انهـا تنتشر عن احدى طريقين . أولاهمـا ، وهي الذائعة المنتشرة ، تنقل هذه المباديء عن طريق الاكراه والقسر . والثانية ، وهي وليدة بعد ، تنقلها عن طريق الارادة الحرة الواعية .

والاكراه والقسر اللذان تتوسل بهما الطريقة الاولى لبثّ هذه الافكار ونشرها ، صنوف وأنواع كثيرة .. اوضحهـا واسهلها القسر الحكومي الذي يحاول ان يشيع من الافكار ما يخدمه ، ويقنن على الناس المباديء كما يقنن غيرها من حقوقهم . وهكذا نجد بين الفينة والفينة طائفة من الافكار يطلقها المتشيعون للحكومات وأنظمتها القائمة ، يحاولون بها ان يشوهوا الحقائق ، جاعلين من هذه الحقائق المشوهة مباديء واهدافاً ، جاهدين في سبيل نشرها بين الناس . وبهذا يقسرون الافكار على قوالب معينة يكرهونها على الدخول فيها عنوة ، ملتمسين في سبيل ذلك شتى الاساليب ، كالدعاوة والاغراء والارهاب .. ومن مخاطر هذا القسر الفكري الحكومي انه كثيراً ما يلتبس لدى فاعله وقابله لبوس الفكر السليم السديد . ففاعلوه ، نعني الحكومات واشياعها ، يأخذهم دولاب الحكم وما فيه من مصـالح ، فيدورون معـه وتدور معه افكارهم ويصيبها منه الدوار ، حتى يظنوا الزائف صحيحاً والمعوج قويماً . والقابلون لهذا الفكر الحكومي القسري ، ونعني بهم الكثير من المحكومين ما يلبث اغراء الحكم لهم او خوفهم منه ان يلعبا في عقولهم ونفوسهم ، فاذا بهم يرضون بمـا توزعه الحكومة من افكار جاهزة مدبرة ، بل يتبنونها في كثير من الاحيان ، ظناً منهم انهم يخلصون بذلك لفكرهم ، بينما هم في الواقع لا يعدون ان يبرروا امام انفسهم وامام الآخرين موقفاً تبنوه بفعل الخوف او المطمع . انهم يخلعون على عبوديتهم للحكام وخضوعهم لمشيئتهم طابع المعقول والارادة الحرة ، وكثيراً ما يفعلون ذلك صادقين مخدوعين ، لأنهم لا يدركون كيف تحتال النفس الانسانية على صاحبها ، دفاعاً عن كيانها وسلامتها ، فتبرر له مواقفه النفعية وتدعم بالعقل والمنطق رغباته ونزعاته البعيدة عن العقل والمنطق ، وتجعل من وصوليته مبدأ ومن تخاذله عقيدة ، ومن جبنه شجاعة .

ومثل هذه المواقف الفكرية نجدها مثلاً عندما تتبنى بعض الحكومات النظام الديكتاتوري ، فيتلقفه بعض الناس منادين به كمبدأ ، بدلاً من ان يعترفوا انهم ينادون به اذ عجزوا عن مقاومته ، او حين رغبوا في الانتفاع من قادته والتكسب عن طريق الزلفى الفكرية . ومثـل هذه المواقف نجدها كذلك عندما تنتقد بعـض الحكومات الحرية وتشوهها ، فيهبّ بعض الكتاب والمفكرين للانتقاص من قدر هذه الحرية ، ظناً منهم انهم يقولون كل سديد معقول ، جاهلين انهم يلتمسون الحجج لموقف ما عقدوا عليه العزم الا لأن فيه تلبية لغرائزهم الخائفة او الجشعة .

ولا غرابة بعد ذلك ان نجد كثيراً من المبادىء والافكار في مجتمعنا يتزايد الايمان بها او ينقص لدى بعض الناس ، بل بعض المفكرين والكتّاب ، تبعاً لقوة السلطة التي تدعمها او ضعفها . ولا غرابة ايضاً ان نجد هذه المباديء والافكار قلقة في النفوس، متنازَعاً امرها، ما دامت تتبع في مدها وجزرها، في كثير من الاحيان ، تقنين الحكومات المتعاقبة لها ، وما دام هذا التقنين يختلف بين عهد حكومي وآخر .

> **« الشيء الوحيد الذي يهب للمبادىء والافكار جمالاً مطبوعاً أصيلاً، واشعاعاً رزيناً ثراً هو الدراسة العلمية لهذه المبادىء والأفكار ، ووعيها وعياً تاماً عميقاً . فبهذه الوسيلة وحدها نستطيع ان نبقي أثرها لدى الجمهور ، وان نجعل من سحرها سحراً باقياً راسخاً ، لا ومضات بارقة خاطفة . »**

على ان القسر والاكراه الفكريين ليساوقفاً على الحكومات وذوي السلطة . والقسر الصادر عن الحكومات ليس في واقع الامر اخطر انواع القسر ، بل هو لا يتصف بالخطر الا لأنه يستمد وجوده من نزعة الى القسر والاكراه قائمة في نفوس ابعد الناس ادعاء لها في بعض الاحيان . فالقسر الحكومي يظل زائفاً لا قوام له ، ان لم تسعفه نزعات موجودة لدى الانسان ينزلق اليها عن غير وعي، حين يغادر التفكير والتدبر والصدق، منطلقاً مع النزوة والاندفاع والمنفعة . وهلا يفوق قسر الحكومات خطراً ذلك القسر الذي يفرضه الكتاب والمفكرون انفسهم ، حين يبشرون بآراء فطيرة لم ينضجوها ، او مباديء تحدوهم الى القول بها شتى المآرب ؟

ان هؤلاء يستثمرون ثقة الناس بفكرهم واستسلامهم لآرائهم ، فيغرسون في هذه النفوس التي القت السلاح امامهم ، رأياً لم يُغَبّ وكلاماً قضيباً لم يمضغ في نفوسهم ولم يكتنفوا بعد محضه وصوابه .

وهذا النوع من القسر الفكري الذي يشيعه من يدعون بالثقات، فيشيعون معه مباديء غير مدروسة وآراء غير مبحوثة، هو اخطر انواع الديكتاتورية في الواقع ، وهو الذي يغفله مع الأسف اكثر المتحدثين عن الديكتاتورية .

وهكذا نجد ان اصحاب الافكار عندنا يلجأون في بث افكارهم الى أحد اسلوبين . الاول، وهو السليم الصحيح، يكون بأن يعوا افكارهم اولاً ويقتلوها بحثاً ، لينقلوها بعد ذلك الى الآخرين موضحين قيمتها ومعناها ، وليقبلها الآخرون فاهمين مدركين احراراً . وهذا الأسلوب الاول هو النادر القليل .

والاسلوب الثاني، وهو الذائع، يكون بأن يتبنى اصحاب الفكر والكتابة طائفة من الافكار والمباديء الفطيرة غير المدروسة ، مندفعين اليها بحكم بعض الميول والرغبات او بحكم السرعة وعدم التعمق ، محاولين إشاعتها بعد ذلك إشاعة مفتعلة مقتسَرة ، عن طريق البهلوانية الفكرية واللفظية ، وعن طريق سحر الالفاظ والعبارات وحشد جميع العوامل النفسية التي تعطل في الناس الفكر فتجعلهم يقبلون ما يقبلون بضرب من الايحاء والتخدير. وفرقٌ كبير ، كما نرى ، بين ان نعتبر الناس غاية ، وان ننقل اليهم ما يعونه وما تتفتح له عقولهم وما يهذّب فكرهم ويصقل احكامهم ونظرتهم الى الكون ، وما يتقبلونه في نهاية الامر وهم في ملء حريتهم وكامل شعورهم بذاتهم ؛ وبين ان نحاول ، بوسائل العرض الساحر الخلاب ، تعطيل ملكات النقد والمحاكمة والفكر لديهم ، لنملأ عقولهم بعد ذلك بما نريد ونحشو ادمغتهم بما نشاء ، بعد ان القوا كل سلاح وانطلقوا معنا كالسائر في نومه . والمفكر المخلص لرسالته يأبى ان يستعين بالفكر على غيره، وبالمنطق على غير المنطق، ويأنف ان يستخدمه وسيلة للغلبة والسيطرة ، وان يجعل منه طاغية رهيباً .

والمسئولون عن كثير من الكوارث في تاريخ الانسانية ليسوا في الواقع اولئك السياسيين والقادة الذين تنسب اليهم بعض اعمال العنف والسوء، وانما هم قبل ذلك اولئك المفكرون الذين لم يخلصوا لفكرهم فأطلقوه فطيراً ، او ارسلوه مدفوعاً برغبة او رهبة، وركبوه على اشلاء الفكر الحقيقي وأنقاضه .

ان همسة واحدة من مفكر مزعوم كثيراً ما تشيع في الجو عبقاً مسموماً يدخل النفوس والاعصاب ويخالط منها اللحم والدم . وان لفظة مادة حارقة يعرف الكاتب كيف ينتقيها لاذعة محرقة، تستطيع في بعض الاحيان ان تشيع الايمان بها، رغم فسادها وفساد مقصدها. يقول احد الأعراب في مدح رجل برقة اللسان: « كان والله لسانه ارق من ورقة وألين من سرقة». ومثل هذا القول جدير بألا يُحمل على ظاهرة الحسن فقط ، وحريٌ بنا ان ندرك وراءه كيف يكون اللسان حقاً ألين من سرقة ، وكيف تكون الألفاظ الاخّاذة سرقات نسرق بها

العقول والنفوس، وضرباً من السطو والاكراه نوقّعه على حرية الآخرين الفكرية . واخطر ما يمكن ان يصاب به الناس من مفكريهم ان يعطى هؤلاء مقولاً دون ان يعطوا معقولاً على حد تعبير عمر بن عبد العزيز .

ان صاحب الفكر معروض بحكم طبيعته لمثل هذا المنزلق، منزلق استثمار الفكر. فكل صاحب سلاح قد يغرى باستخدامه لغير مقصده الأصلي النبيل الذي وُجد له . وادهى ما تمنى به امة ان يغلب فيها المفكرون الذين لا يتهيبون رسالة الفكر، ولا يملكون القدرة على اجتناب مزالقه، فيُسحَرون ببهرجه ويَسحَرون، ويسخّرونه ويسْخَرون . ولئن كان واجب المفكر دوماً ان يخلص لذاته وفكره، وان يجنب الناس شطحات هذا الفكر وزلاته، فمن واجبه خاصة في المرحلة الحالية من حياتنا العربية، ألا يزيد في قلق القيم واضطراب المباديء، وان يقدّم من الأمر كل مدروس، ومن الرأي كل مبيّت مبحوث . والمباديء التي يريد ان يشيعها ينبغي ان يبنيها على أساس دراسة علمية لمضمونها وطرق تحقيقها، وألا يكتفي بالتشدّق بها وتكرارها وزرع أفيونها . **ومن حقه وحق الشعب عليه ان يدرك ان البلاد العربية ينبغي ان تتجاوز مرحلة التغني ببعض المباديء والاشادة بها، لتنتقل الى دراسة هذه المباديء دراسة حصيفة منقبة، والى زرعها زرعاً راسخاً واعياً .**

ان من وظيفة الفكر ان يعلّم القصد في الأحكام والدقة في وزن الأمور . وهذه الوظيفة الاساسية يفقدها ان طاش سهمه وانتهج اسلوب التأثير السحري على الناس ونفوسهم . ونحن احوج ما نكون في بلادنا العربية الى توطيد دعائم هذا القصد في الاحكام، وعدم الشطط والاسراف في اطلاق القيم والآراء . واقوى ما نشكو منه منذ عهد بعيد هو روح الغلوّ والافراط، وعدم الاتصاف بحسّ القصد . **ولهذا كنا أعطش ما نكون الى تربية فكرية رائدها القصد العلمي والدربة على روح الدقة والنصفة** . ولا يؤدي مثل هذه التربية دون شك فكر انطلق مع طلاوة العبارة او حرارة اللفظة الوشعرية الفكرة، وحاول ان ينشر المباديء عن طريق احاسيس جسدية يورّمها لدى الجمهور، وعن طريق مشاعر لزجة يثيرها اثارة مفتعلة وينعشها انعاشاً مرَضياً، كإنعاش الكحول او المهيّجات . ولا يعني هذا اننا نقلل من شأن الادب والشعر والروح الفنية جملة في اشاعة الاحاسيس القومية والمباديء الاجتماعية . وانما نرى ان الادب والشعر والفن شيء، واساءة استعمال الشعر والادب والفن شيء آخر . والفن الحقيقي على اختلاف انواعه، لا يبعد عن حقيقة الحياة، بل هو يلامسها ويضرب منها الصميم . اما الذي يبتعد عن هذه الحقيقة فهو الفكر الذي يصطنع الفن اصطناعاً زائفاً ليتخذه وسيلة لاشاعة مفاهيم ومعانٍ تناقض الحياة ومباديء الحياة الصحيحة . وليس الخوف من الفكر الاصيل الذي ينقلب الى ادب وشعر وفن، وانما الخوف كل الخوف من الفكر المهجين الزائف الذي يريد ان ينتقل ويتجول بزي الادب والشعر والفن، وبأساليبها دون روحها . فمن شرائط الفكرة السليمة ألا يكون فنها اسرع الى النفاذ في النفوس من معناها، وان يكون الفن فيها مسايراً للمعنى والروح موافقاً لهما، بل نتيجة طبيعية لقوة المعنى ومتانته، ونغماً من انغامه . وفرقٌ بين ان نحتال على المعنى الخسيس النحيل فنكسوه حلة فضفاضة باهرة وزخرفاً مفرطاً، وبين ان نُلبس المعنى الشريف ما لا يُخفي نبالته وشرفه. وخير المباديء ما كان من متانته وقصده في اشعاع، ومن قوته ومكانته في نصوع؛ وما طرب له الشعر ومثل الادب، لا ما أكره الادبَ على سكرة لا تصدر عن نشوة، وأجبر الشعر على غناء لا يحدوه الطرب ..

والشيء الوحيد الذي يهب للمباديء والافكار جمالاً مطبوعاً اصيلاً، واشعاعاً رزيناً ثرّاً، هو الدراسة العلمية لهذه المباديء والافكار ووعيها وعياً تاماً عميقاً . فبهذه الوسيلة وحدها نستطيع ان نبقي أثرها لدى الجمهور، وان نجعل من سحرها سحراً باقياً راسخاً، لا ومضات بارقة خاطفة . وخطأ ان يخيّل الينا اننا ننجح في بث المباديء سريعاً، عن تلك الطريق السهلة، طريق نثّها نثّ المحدّر . والنجاح الحقيقي للمباديء هو النجاح الذي نصل اليه حين نحفر في هذه المباديء اولاً لنتعرف عليها ونعيها وندرك جوانبها، ثم نحفرها بعد ذلك في النفوس بان نفتح تلك النفوس على حقيقتها فنجعلها تغتني بها وتغنيها في آن واحد . وقد تكون هذه الطريقة الثانية صعبة طويلة، لكنها مضمونة راسخة . اما الاولى فقد تبدو قصيرة سهلة، غير انها زائلة فاشلة .

على ان وعي الافكار والمباديء لا يكون بالبحث العلمي الدائب وحسب، بل يكون قبل ذلك بمعاناة هذه الافكار

الى وردة بيضاء

كَنْزَ البرودة والرحيق ومخبأ اللين العَطِرْ
يا من عُصرْتِ من الثلوج ، من الحليب ، من القمرْ
يا ضوء خدّ من حرير ابيض ملء النظر
بيضاء يا مغنى فراشات الربيع المنتظر
الشمس ودّت لو سقيت ضياءها منحاً أخر
والفجر عاشقُكِ الأمين يريق ظلك في النهر
يا ملتقى حب السواقي والقناطر والشجر
واحسرتاه على البشر
مرّوا بكنزكِ قائلين :
« مسكينة ... ما تملكين ؟ »

★

بيضاء نحنُ أنا وأنت سنكتمُ السرّ المثيرْ
سرّي وسرّك لن نبوح به الى الركب الضرير
ماذا ملكنا ؟ لا ضياعَ ولا عبيدَ ولا قصور
لا شيء الا رعشة القمر المرنح في الغدير
وغناء أنسام المساء المخمليات المرور
وصداقة العصفور والفجر الملوّن والعبير
ومودّة الشمس الحنون وقبلة المطر الغزير
ووساد أعشاب وثير
وارحمتا للسائلين
وسؤالهم : « ما تملكين ؟ »

بغداد — **نازك الملائكة**

والمباديء فعلاً ، ونقلها الى الناس تجربة حية . فالمباديء لا تتضح في نفس المفكر ولا تتجلى له سافرة ما لم يمهرها بتجارب حية ونضال في سبيلها . ومن هنا كان المفكر المخلص لنفسه وامته هو الذي يطلق من الافكار ما عاناه حقاً ومضغه ، وما وهبه قطعاً من اعصابه وعروقه . بل ان البحث العلمي لا ينفصل في الواقع عن هذه المعاناة الحية: ففهم الفكرة لا يكون بالتفرج عليها وتأملها ، وانما يكون بالمخاطرة معها حتى النهاية، وبالسعي اليها صابراً دائباً .

وهنا يحضرني تشبيه لـ « كير كجورد » في كتابه « العصر الحاضر » فيه يصوّر لنا لؤلؤة في بحر متجمد يكلف الوصول اليها كثيراً من الاخطار. الا ان بين الشاطيء واللؤلؤة منطقة اولى ليست خطرة . ففي عصور البطولة الحقيقية لا يصفق الناس. فقط لمن يخاطر بنفسه في سبيل هذه اللؤلؤة ويعرّض حياته من اجلها ، فيتجاوز منطقة السلامة ويدخل منطقة الخطر ويجتلب اللؤلؤة ، وانما يمضون في اثره ويندفعون معه . اما في عصور الحماسة الجوفاء والزيف الفكري فيصفق المشاهدون لمن يدخل المنطقة الامينة ويقوم فيها ببعض الحركات الماهرة ، دون ان يبلغ منطقة الخطر ودون ان يأتي باللؤلؤة . فلقد كفاه ان اشرف على الخطر ، ولقد كاد يبلغ اللؤلؤة او يدنو منها. وحسبه هذا في رأيه وفي رأي مشاهديه .

والأفكار الجدّية هي هذه اللؤلؤة ، والسعي اليها محفوف بالتجارب الصعبة . اما المفكرون فيأبون ان يدّعوا الوصول الى هذه الافكار ، قبل ان يصلوا اليها فعلاً عن طريق البحث الدائب والنضال الصبور . واما الذين لم يدركوا رسالة الفكر او يريدون اللعب على حسابها ، فيوهمون الناس ببلوغ هذه الافكار عن طريق العاب بهلوانية تشبه رقصات اولئك الذين يحومون حول اللؤلؤة في مثال « كير كجورد » .

دمشق — **عبد الله عبد الدائم**